الجزء الثامن والعشرون — سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

٥٥٦

معانى الكلمات :

له الملك : التصرف المطلق فى كل شىء .

بالحق : بالحكمة البالغة .

المصير : المرجع .

وبال أمرهم : سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا .

وتولوا : أعرضوا .

والنور : القرآن .

ليوم الجمع : ليوم القيامة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة الصلة بين الخالق سبحانه ـ وهذا الكون الذى خلقه .

٢ ـ أن نتعرف على حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها فى الكون وفى الحياة الإنسانية .

٣ ـ أن نعلم مصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات المعترضين على بشرية الرسل .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق فيشير إلى أن كل ما فى السموات والأرض متوجه إلى ربه ، مسبح بحمده ، وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شىء فى هذا الوجود مؤمنة ، والله مالك كل شىء ، وكل شىء شاعر بهذه الحقيقة ، والله محمود بذاته ممجد فى مخلوقاته ، فإذا وقف الإنسان وحده فى خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح متمرداً عاصيا ، لا يسبح لله ولا يتجه إلى مولاه ، فإنه يكون شاذاً بارز الشذوذ ، كما يكون فى موقف المنبوذ من كل ما فى الوجود ، والله سبحانه صاحب القدرة الطليقة التى لا تتقيد بقيد ، وتحقق ما تريد بلا حدود ولا قيود .

وهو الذى خلق الإنسان ، وأودع فيه إمكان الاتجاه إلى الكفر ، وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ، وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من خلق الله ، والله رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل ، بصير

بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير ، وتأتى الإشارة إلى الحق الأصيل الكامن فى طبيعة الوجود ، الذى تقوم به السموات والأرض ، وصنعة الله المبدعة فى كيان المخلوق الإنسانى ، وتقرر رجعة الجميع إليه فى نهاية المطاف ، وتأتى الإشارة إلى تصوير العلم الإلهى المحيط بكل شىء ، المطلع على سر الإنسان وعلانيته ، وعلى ما هو أخفى من السر من ذوات الصدور الملازمة للصدور ، واستقرار هذه الحقيقة فى القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته .

يقول صاحب الأساس : « قررت الآيات أموراً وأقامت حججاً :

١ ـ تسبيح ما فى السموات والأرض لله .

٢ ـ ملكية الله عز وجل للأشياء كلها .

٣ ـ أن كل نعمة ظاهرة وباطنة هى من الله عز وجل .

٤ ـ اتصاف الله عز وجل بالقدرة المطلقة .

٥ ـ انقسام البشر إلى قسمين كبيرين مؤمنين وكافرين،وذلك من مظاهر اتصافه بكمال القدرة.

٦ ـ اتصاف الله عز وجل بصفة البصر التى تحيط بالظواهر والبواطن .

٧ ـ أن الله عز وجل هو وحده خالق السموات والأرض وأن خلقه لهما كان لحكمة وليس عبثا .

٨ ـ وأن تصويره البشر على ما هم عليه أثر حكمته .

٩ ـ وأن إلى الله المرجع .

١٠ ـ وأن علمه محيط بما فى السموات وما فى الأرض وأنه يعلم ما يسره البشر وما يعلنونه ، وأنه عليم بما فى الصدور .

١١ ـ وأنه عذَّب الكافرين السابقين ؛ بسبب كفرهم برسل الله عز وجل ومعجزاتهم ، وبسبب استكبارهم أن يهديهم البشر ، وزعمهم أن الله لن يبعثهم وهذا يقتضى نفى الحكمة الإلهية » .

ثم يذكر السياق بمصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات ، المعترضين على بشرية الرسل ، كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول ﷺ ، ويكفرون بما جاءهم به من البينات ، والخطاب هنا للمشركين ، وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة ، والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ما جاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا عاقبة أمرهم ، وقد يكون للفت أنظارهم إلى هذا النبأ الذى يقصه عليهم ، وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين ، كعاد وثمود وقرى لوط ، ويضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم فى الدنيا ما ينتظرهم هنالك فى الآخرة من العذاب الأليم .

ثم يكشف عن السبب الذى استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم ؛ فقد كانت رسلهم تأتيهم بالحجج والدلائل والبراهين ، فاستبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر ، وأن يكون هداهم على

يدى بشر مثلهم ، فكذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ، واستغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم ، وما هو ـ سبحانه ـ بمحتاج إلى شىء منهم ولا من غيرهم ، فهو الغنى الحميد .

ثم يحكى السياق تكذيب الذين كفروا بالبعث ، ومنذ البدء يسمى مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما ، فيقضى بكذبه من أول لفظ فى حكايته ، ثم يوجه الرسول ﷺ إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ، وهو أن يحلف بربه، والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ، وذلك يسير على الله فهو يعلم ما فى السموات والأرض ، ويعلم السر والعلن ، وهو عليم بذات الصدور، وهو على كل شىء قدير، وفى ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والنور الذى أنزله مع رسوله ، وهو هذا القرآن ، وهو هذا الدين يبشر به القرآن ، وهو نور فى حقيقته بما أنه من عند الله والله نور السموات والأرض وهو نور فى آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته ، ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بما يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله لا يخفى عليه منهم شىء.

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذى أكده لهم أوثق توكيد ، فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق فى جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله ، وفى مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شىء منه ثم صيرورتهم إلى الجحيم ، فهما نصيبان متباعدان .

قال القاسمى : « قال القاشانى : أى ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورة الفناء ، لا يبقى شىء منها لأحد ، فإن فات شىء من ذلك أو أفاته أحد ولو كان حياته فإنما فات أو أُفِيتَ ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن فى إفاتة شىء لو لم يفته لبقى دائما ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكمالى والاستعدادى ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك فى إضاعة الربح ورأس المال فى تجارة الفوز والنجاة كما قال : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (البقرة) ، فمن أضاع استعداده ونور فطرته كان مغبونا مطلقا ، كمن أخذ نوره وبقى فى الظلمة ، ومن بقى نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذى يقتضيه استعداده أو اكتسب منه شيئا ولم يبلغ غايته كان مغبونا بالنسبة إلى الكامل التام،فكأنما ظفر بذلك الكامل بمقامه ومرامه،وبقى هذا متحيزاً فى نقصانه» .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على القلب أن يعيش فى خشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ، وأن يمضى فى الحياة معلقا فى كل حركة وكل خالجة باله بالله ، شاعراً بقدرته وهيمنته .

٢ ـ كرم الله الإنسان وأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار وعليه أن يبصر اتجاهه

٣ ـ ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، وإنما التغابن فى إفاته شىء لو لم يفته لبقى دائما ، وانتفع صاحبه به سرمداً وهو ثواب الآخرة .

سورة التغابن

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن
مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ
فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ
وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

سورة الطلاق

٥٥٧

معانى الكلمات :

المصير : المرجع .

توليتم : أعرضتم .

يهد قلبه : يوفقه لليقين والصبر .

فتنة : بلاء ومحنة واختبار .

يوق : يسلم . **شح نفسه** : بخلها الشديد مع حرصها . **قرضا حسنا** : احتسابا بطيبة نفس وإخلاص . .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أثر الإيمان بالله فى هداية القلب .

٢ ـ أن نعلم دوافع التقصير فى تبعات الإيمان .

٣ ـ أن نعلم كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق قاعدة من قواعد التصور الإيمانى فى القدر، وفى أثر الإيمان بالله فى هداية القلب، فهو الإيمان الذى يرد كل شىء إلى الله ، ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله ، وهى حقيقة لا يكون إيمان بغيرها ، فهى أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها ، وهذا جانب ضخم من التصور الإيمانى الذى ينشئه الإسلام فى ضمير المؤمن ، فيحس يد الله فى كل حدث ، ويرى يد الله فى كل حركة ، ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء ، يصبر للأولى ويشكر للثانية ، وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا ، فيشكر فى السراء وفى الضراء ؛ إذ يرى فى الضراء كما فى السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات، أو بالخير على كل حال .

ومن استقر فى ضميره هذا التصور الإيمانى يهده الله هداية مطلقة ، ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة ، ويصله بأصل الأشياء والأحداث،فيرى هناك منشأها وغايتها ، ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح ، وهى هداية إلى شىء من علم الله ، يمنحه لمن يهديه ، حين يصح إيمانه فيستحق إزاحة الحجب ، وكشف الأسرار بمقدار .

ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول ، وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا ، وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ ، فإذا بلغ فقد أدى الأمانة ، ونهض بالواجب وأقام الحجة ، وبقى ما ينتظرهم هم من المعصية والتولى ، مما ذكروا منذ قليل ، ثم يختم هذه الآية بتقرير حقيقة الوحدانية التى ينكرونها ويكذبونها ويقرر شأن المؤمنين بالله فى تعاملهم مع الله ، وحقيقة التوحيد هى أساس التصور الإيمانى كله ، ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده ، فهذا هو أثر التصور الإيمانى فى القلوب .

وفى النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ويدعوهم إلى تقوى الله والسمع والطاعة والإنفاق ، كما يحذرهم شح الأنفس ، ويعدهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح ، ويذكرهم فى الختام بعلم الله للحاضر والغائب ، وقدرته وغلبته مع خبرته وحكمته ، وهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذى فى الآية التالية من الأموال والأولاد معا ، والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً .

إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة فى الحياة البشرية ، ويمس وشائج متشابكة دقيقة فى التركيب العاطفى وفى ملابسات الحياة سواء، فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله ، كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير فى تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التى تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه ، فلقى ما يلقاه المجاهد فى سبيل الله ، والمجاهد فى سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير ، وتضحية الكثير كما يتعرض هو وأهله للعنت ، وقد يحتمل العنت فى نفسه ولا يحتمله فى زوجه وولده ، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ، فيكونون عدواً له ؛ لأنهم صدوه عن الخير ، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنسانى العليا .

كما أنهم قد يقفون له فى الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه؛ اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم قد يكونون فى طريق غير طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله ، وهى كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات وهذه وتلك مما يقع فى حياة المؤمن فى كل آن ، ومن ثم اقتضت هذه اكمال العقدة المتشابكة ، التحذير من الله ، لإثارة اليقظة فى قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات .

ثم كرر هذا التحذير فى صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد ، وكلمة فتنة تحتمل معنيين :
الأول : أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم ، فانتبهوا لهذا وحاذروا وكونوا أبداً يقظين لتنجحوا فى الابتلاء ، وتخلصوا وتتجردوا لله ، كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب .

والثانى : أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها فى المخالفة والمعصية ، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله ، وكلا المعنيين قريب من قريب .

وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس ، وأودعها هذه المشاعر ، ولتكفكف نفسها عن التمادى والإفراط ، وهى تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو ، وتؤدى بها إلى ما تؤدى إليه مكايد الأعداء ، ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد ، والعداوة المستعرة فى بعض الأبناء والأزواج ، فهذه فتنة ، وعند الله يوم القيامة الأجر العظيم .

ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله فى حدود الطاقة والاستطاعة ، وبالسمع والطاعة ، ويتجلى لطف الله بعباده ، وعلمه بمدى طاقتهم فى تقواه وطاعته ـ بهذا القيد ﴿ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ فالطاعة فى الأمر ليس لها حدود ، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع ، أما النهى فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان .

ثم يهيب السياق بهم إلى الإنفاق ، فهم ينفقون لأنفسهم ، وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم ، فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم ، وبعدها الخير لهم حين يفعلون ، ويريهم شح النفس بلاءً ملازما ، السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ، والوقاية منه فضل من الله ، ثم يمضى فى إغرائهم بالبذل وتحبيبهم فى الإنفاق ، فيسمى إنفاقهم قرضا لله ، ومن ذا الذى لا يربح هذه الفرصة التى يقرض فيها مولاه ؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به، ويشكر المقرض ، ويحلم عليه حين يقصر فى شكره وهو الله !

إن الله يعلمنا ـ بصفاته ـ كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا ، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه ـ سبحانه ـ ونحاول أن نقلده فى حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة ، وقد نفخ الله فى الإنسان من روحه فجعله مشتاقا أبداً إلى تحقيق المثل الأعلى فى حدود طاقته وطبيعته ، وتبقى صفة الله التى بها الاطلاع والرقابة على القلوب، فكل شىء مكشوف لعلمه، خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته ، كى يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم ، وسلطانه عليهم ويكفى أن يستقر هذا التصور فى القلوب لتتقى الله وتخلص له وتستجيب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل شىء يقع فى هذا الكون بإرادة الله تعالى ، والمؤمن هو الذى يسلم الأمر لله وحده ، فيعيش قويا آمنا راضى النفس بكل ما يصيبه بعد أن يتخذ الأسباب ، ويؤدى ما عليه من واجبات .

٢ ـ الإسلام دين يسر وسماحة ، وقد أمر الإنسان أن يفعل ما فى استطاعته من الطاعات وأعمال الخير ، ولكن عليه أن يجتنب كل ما نهى الله عنه .

٣ ـ طاعة الرسول واجبة مثل طاعة الله تعالى .